وهذا معناه أن الأنماط اللغوية ليس عملها هو تحديد المدركات الحسية والتفكير ولكن عملها هو توجيه الإدراك والتفكير في اتجاهات معينة مألوفة مستعينة في ذلك بالأنماط الثقافية الأخرى. فالأسكيمو الذين يميزون بين أنواع عديدة من الثلج والذين يفتقرون الى كلمة واحدة عامة تشير الى (الثلج) في ذاته انما يستجيبون لمركب كلي من الأنماط الثقافية يتطلب منهم أن يميزوا بين الثلج في حالاته المختلفة، فهم ليسوا في حاجة الى كلمة واحده عامة أو كلية، انما الشيء (الذي هم في حاجة اليه فعلا هو عدة كلمات تسير الى الحالات والظروف المختلفة التي يكون عليها الثلج: الثلج الصلد، والثلج اثناء انصهاره، والثلج في حركته، والثلج في تهشمه، والثلج في تراكمه، وهكذا. فلغتهم إذا تعكس الاستخدامات العملية التي تستخدم فيها. وهناك الكثير من الشعوب غير المحضرة ممن يسكنون مناطق تكسوها الغابات وليس لديهم كلمة مناظرة لكلمة شجرة ... وفي هذه الحالة ايضا تعكس اللغة الاحتياجات العملية، اذ ان هناك اسماء لكل نوع من أنواع الأشجار ولكل حالة من حالاتها[1]. اي ان التميزات التي يقيمها

---

[1] انظر في ذلك اشلي مونتاجيو، المرجع السابق ذكره، صفحة ١٢٥. بتعقد مونتاجيو ان هذه التمييزات التي تقيمها اللغة بين الأشياء هي دليل على الدقة في النظر ال تلك الأشياء وعلى وضوح المعاني وتحديدها تحديدا شديدا في اذهان الناس، ويرى في ذلك انه بالنسبة (لمعظم هنود امريكا تبدو عبارة: ان كلبا ينبح على درجة كبيرة من السخف. فالذي يريده الهندي الأمريكي ان يعرفه هو: أي كلب، والى من ينتمي، واين هو، ومن هو وهل هو واقف ام هو يجري ام يقفز ام ماذا، ويستطيع الهندي الأمريكي – مستخدما لغته هو – ان يقول هذه الأشياء جميعا في بضعة أصوات لا تزيد عن تلك التي نطلقها نحن حين نقرر ان كلبا ينبح. فمن المهم بالنسبة للهندي ان يحصل عل المعلومات التي يريدها ومن المحال ان يخطر بباله ان يكون ما نحن عليه من عدم الدقة عندما تشير الى كلب ينبح) المرجع السابق ذكره صفحة ١٢٦. ويبدو للشعوب غير المتحضرة قدرة فائقة على ذكر عددا كبيرا جدا من الأشياء في عدد قليل من الكلمات بعكس الحال في المجتمعات المتحضرة.

ويرجع معظم الفضل في دراسة هذه المسائل ال علماء الانثروبولوجيا الأمريكيين الذين يعتبرون دراسة اللغة فرعا هاما من الانثروبولوجيا الثقافية. وجاء هذا الاهتمام نتيجة لتركيزهم على دراسة

مجتمع من المجتمعات في انماطه اللغوية وبالتالي في انماطه الثقافية تركز على مدى أهمية من الفئات التي يميز بينها بالنسبة لوجوده الفيزيقي .. فالمسألة تبدو كما لو كانت اللغة تختار من البيئة العامة بعض الملامح ذات الأهمية الخاصة، وهي بذلك تعطى لهذه البيئة نوعا من التنظيم او البناء الخاص بتلك الجماعة بالذات.

وتختلف طرائق وأساليب التفكير في المجتمعات المختلفة من حيث انواع الرموز[٢] التي يستخدمها الناس في هذه المجتمعات وانواع الأشياء التي يعتقدون بأهميتها بالنسبة

الهنود الحمر والرعبة في تفهم خصائص ثقافتهم، خاصة ان بعض القبائل كان لها ماض عريق بل وامبراطوري، وحضارات قديمة، وكان من الضروري لفهم هذه الحضارات من دراسة اللغة والعلاقة بينها وبين بقية مظاهر الثقافة، وكان من نتيجة ربط الدراسات الأنثروبولوجية واللغوية معا ان ظهرت فروع حديدة للتخصص تحت عناوين: Ethological philology, linguistics ethnology, anthropological linguistics, ethnoliguistics, metalinguistics وكذلك sociolinguistics and psycholingistics وهكذا. انظر في ذلك Haymes, op. cit. p. 93.

[٢] تؤخذ الرموز في الكثير من الكتابات بمعنى واسع وفضفاض بحيث نجد عالما من اهم علماء الانثروبولوجيا هو رادكلف براون Radcliffe Brown ان كل ماله معنى هو رمز وان المعنى هو أي شيء يمكن التعبير عنه بالرمز ومع ان الرموز لها معان باعتبارها تمثل أشياء أخرى الا انه ليس من المفيد ان نعتبر كل شيء اخر رمزا، بإشارة المرور الخضراء –على ما يقول جون بيتي– علامة على شيء اخر هو من الممكن العبور في امان ولكن ذلك لا يجعل الضوء الاخضر رمزا على ان هناك من يرون في إشارات المرور الضوئية معنى رمزيا. وعلى ذلك فمن المفيد التمييز بين نوعين من العلامات او الأشياء التي لها معنى او تمثل شيئا اخر غيرها هي ذاتها. فهناك الإشارات Signals التي تعطي معلومات معينة عن الماضي او الحاضر او المستقبل، ووظيفتها هي انها تنقل رسالة محددة، كان يؤخذ اللون الأحمر على انه يعني وجود خطر، والحيوانات تعمل مثل هذه الإشارات في كثير من الأحيان ولكنها تفتقر الى القدرة على التقدير الرمزي. وقد تكون العلامات مسائل اتفاقية بحتة كما هو الحال في اللغة، وليس ذلك هو الخال بالنسبة الى الرموز حيث يكون هناك سبب واضح الى ان نرمز الى موقف معين او حالة معينة برمز معين بالذات.

لهم وكذلك في الطرق التي يمثلون بها لأنفسهم العالم الفيزيقي والاجتماعي والأخلاقي الذي يعيشون فيه، ومن البديهيات الإبستمولوجية – كما يقول جون بيتي John Beattie – هو أن الناس يرون ما يتوقعون رؤيته وان انواع مدركاتهم تتحدد درجة كبيرة – ان لم يكن كلية – بالنسبة الى الأوضاع الاجتماعية والثقافية التي يعيشون فيها[٣]، وقد سبق ان رأينا كيف أن النوير الرعاة يستطيعون التمييز بين مئات الانواع من الماشية عن طريق الرجوع الى اللون وشكل القرون وما اليها، فان عندهم لها اسماء محددة ، بينما البقرة في بالنسبة للشعوب الزراعية تكون مجرد بقرة. فالتمييزات بين الأشياء توجد أذن في بعض الثقافات دون الأخرى، او توجد بطريقة مختلفة في الثقافات المختلفة على ما رأينا حين تكلمنا عن التمييزات القرابية في المجتمعات الإنسانية

وتختلف الأسس التي تقوم عليها ملائمة الرموز للأشياء التي ترمز اليها. فقد تكون هناك مشابهة حقيقية او متخيلة بين الرمز وما يرمز اليه مقل اعتبار اللون الأبيض رمزا للعفة والطهارة والنقاء، وقد يكون الرمز مستمدا من بعض الوقائع التاريخية في حياة الفرد او الثقافة او المجتمع نقل العديد من الرموز الطوطمية الموجودة لدى الكثير من المجتمعات القبلية. وقمة اختلاف اخر بين الرموز او العلامات او الإشارات، وهو ان الرموز تتضمن الى فكرة مجردة وليس الى حادث نعين او الى شيء مادي ملموس، فليس هناك حاجة الى ان ترمز الى الصخور او الابقار او الأشجار وما اليها من أشياء، مع ان هذه الأشياء قد تصبح رموزا لأشياء غيرها، فما يرمز اليه في كل اللغات والثقافات هو أشياء مجردة مثل القوة او التماسك الاجتماعي او السلطة العائلية او السياسية، وهذا هو اهم عنصر في الرموز من الناحية الاجتماعية. فهي تزود الناس بوسيلة لتمثيل الافكار المجردة خاصة وان الحياة اليومية تشغل معظم تفكير الناس عن ان يحاولوا التفكير في الكثير من الأمور المجردة مثل تماسك الجماعة، بينما نجد ان فكرة العلم التي ترمز الى الوطنية تقوم بهذه الوظيفة. وعلى اية حال فان الرمز مسألة تعبيرية في أساسها، فهي طريقة لقول الأشياء المهمة التي يستحيل قولها بطريقة مباشرة، والشيء الذي يقال رمزيا لابد من التفكير فيه حتى يستحق ان يقال، أي انه شيء يرمز اليه لان له قيمة عالية. راجع في ذلك:

Beattie, J.; Other Cultures, Free Press, N.Y. 1964; pp. 69-71.

[3] Ibid, p. 75.

المختلفة، فالناس في المجتمعات المختلفة والثقافات المختلفة ينظرون إلى العالم الذي يعيشون فيه نظرات مختلفة جدا عل ما ذكرنا. وليست المسألة هي مجرد الوصول الى نتائج مختلفة من نفس الشواهد والبيانات، بل ان الشواهد التي يعتمدون عليها في مختلف الثقافات، قد تكون هي ذاتها مختلفة أيضا، وعلى حد قول بيتي في ذلك، إذا كان الناس جميعا (يعيشون) –بمعنى ما–في عالم واحد فانهم يسكنون –بمعنى آخر –في عوالم مختلفة[4]. وهذا امر سبقت الإشارة إليه حين ذكرنا رأي سابير ومن بعده فورف من أن الشعوب التي تتكلم لغات مختلفة تعيش في (عوالم من الواقع) مختلفة وان اللغات التي يتكلمونها تؤثر بدرجة كبيرة في مدركاتهم الحسية وفي انماط تفكيرهم المعتادة. والدراسات التي قام بها فورف على لغة قبائل الهوبي Hopi في أمريكا ومقارنتها بلغات غرب أوروبا بينت له بوضوح ان قواعد اللغة عند كل المجوعتين لها صلة وثيقة بثقافتهم الخاصة. ولم يقتصر فورف في ذلك على مقارنة الألفاظ أو المصطلحات وانما تطرق الى مقارنة بعض المفهومات والمقولات مثل مقولتي الزمان والمكان كي يعرف اذا ما كانت هذه المفهومات عامة بالنسبة لجميع البشر ولها نفس المعنى او انها تتأثر ببناء لغات معينة بالذات، وهل ان هناك علاقات يمكن التعرف عليها بين المعاني الثقافية والسلوكية والأنماط اللغوية الكبرى ، ولم يكن هدف فوروف في ذلك أن يتبين بما اذا كان هناك ارتباط بين اللغة وبقية الثقافة بالمعنى الساذج البسيط مثل محاولة البحث عن مدى وجود علاقات بين البناء اللغوي وبعض ملامح الثقافة السائدة في مجتمعات معينة بالذات لها طابعها الاجتماعي والاقتصادي العام، كأن يقارن مثلا بين هذه الأمور في حياة القنص وحياة لأن محاولات ربط اشكال معينة من المورفولوجيا اللغوية بمراجل معينة من التطور الثقافي هي محاولات فجة وساذجة بل وغير مجدية، انما كان هدف فورف من هذه المقارنات هو أن يبين لنا عن طريق المقارنة بين اللغات ونواحي التعارض الأساسية في التفكير العادي عند الشعوب

---

[4] Loc. Cit.

المختلفة، وان هذا التعارض يتعلق بما يسميه فوروف (الكون الصغير) او (العالم الصغير) الذي يحمله كل شخص في داخله ويستخدمه في قياس وفهم المعالم الكبير، وبالتالي فان نظرة الانسان الى العالم الخارجي الواقعي تحددها نشأته اللغوية، وهذا هو السبب في اختلاف نظرة الأسكيمو مثلا إلى الثلج ونظرة الهنود الحمر إلى الكلب الذي ينبح ونظرة النوير الى الماشية. الأمثلة التي سبق ذكرها عن نظرة الرجل الأوربي الى هذه الأشياء ذاتها.